أ. الشيخ محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

دراسات ومقالات

الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم

يصرح القرآن الكريم في الآية السابعة من سورة آل عمران بوجود آيات محكمات هن ام الكتاب، واخر متشابهات فيقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾.

وقد اختلف المفسرون في المراد من المحكم والمتشابه وترددت نظرياتهم بين كون التشابه قائماً على اساس علاقة اللفظ بالمعنى ومدى دلالته وظهوره فيه وكونه - أي التشابه - في مجال تطبيق المعنى المفهوم على مصاديقه وتجسيداته الخارجية فالمتشابه: هو ما حصل تردد في دلالته على المعنى المراد ـ على رأي ـ او ما حصل معه التردد في افراد المعنى الذي يدل عليه، والمحكم ما يقابله.

ولسنا نريد هنا الدخول في مجال عرض الاتجاهات الرئيسة في هذا المجال وترجيح احدها على الاخر.

وانما نقصد ان نعرض الى مبررات احتواء القرآن الكريم على آيات والفاظ متشابهة يحصل التردد في فهم تطبيقاتهاوهل يتنافى ذلك مع كونه كتاب الهداية العامة للبشرية؟

وسنحاول فيما يلي التعرض الى ما قيل في هذا المجال وتوضيحه اولا ثم نحاول التعقيب على ما ذكر اما بالرد او بالتكميل.

الآراء في هذا المجال:

نستطيع ان نحصر اهم ما قيل في توضيح الحكمة من مجيء كل الآيات المتشابهة او بعضها وذلك في نقاط كما يلي:

١. الامتحان والتربية على الاستسلام والخضوع:

فقد ذكر الشيخ محمد عبده: «ان الله سبحانه انزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به فانه لو كان كل ما ورد في الكتاب واضحا لا شبهة فيه عند احد من الاذكياء ولا من البلداء لما كان في الايمان به شيء من معنى الخضوع لما انزل الله تعالى والتسليم لما جاءت به رسله».[١]

ويؤكد هذا بالالتفات الى ما قالته الآية: «والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا» في حين أن ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ﴾.

وقد اكد هذا الرأي صاحب «مناهل العرفان» فقال في مجال تعداد حكم بعض انواع المتشابه: «ثانيتها الابتلاء والاختبار أيؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق ام لا؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا وان لم يعرفوا على التعيين والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به وهو الحق من ربهم، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة».[٢]

ونقل عن السيوطي عن بعضهم انه ذكر فوائد للمتشابه الذي استأثر الله بعلمه ومنها:

«ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم...»[٣]

ثم قال: ورابعتها اقامة دليل على عجز الانسان وجهالته مهما عظم استعداده وغزر علمه، واقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وانه وحده هو الذي احاط بكل شيء علماً وان الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء، وهنالك يخضع العبد ويخشع ويطامن من كبريائه ويخنع».[٤]

ومما لاريب فيه ان الامتحان والابتلاء يشكل نوعا اساساً من انواع تربية الانسان المسلم على ان يتحلى بالصفات التي يريد الله ان تتقوم شخصيته بها، وأهم هذه الصفات بل الملكات المتأصلة صفة التعبد والاستسلام لله تعالى في كل شيء يثبت انه منه تعالى عرف الحكمة فيه ام لم يعرف، وقد وضع الاسلام لغرس هذه الملكة في اعماق المسلم برنامجا واسعا واساليب مختلفة يمكن أن يذكر منها ما نحن بصدده، كما يمكن أن يذكر منها اسلوب عرض قصص المستسلمين الاطهار (كابراهيم واسماعيل) وكذلك القصص التي تحكي عن الحكمة الالهية الواسعة التي هي فوق ما يتصور الانسان الحبيس في سجن ضعفه وامكانه حتى ولو كان ذلك الانسان موسى (ع).

ومنها نظام العبادات الى غير ذلك مما ليس هنا محل ذكره.

وعليه فيقف الممتحن امام هذه الآيات المتشابهة موقفين تبعا لمسبقاته وتصوراته واستسلامه فإما الاغترار واتباع الرأي ابتغاء للفتنة وإما الاستسلام لله تعالى وارجاع الأمر اليه.

٢. الدفع نحو التعمق والتوسع الفكري:

وقد ذكر عبده ايضا أن وجود المتشابه «كان حافزا للعقل المؤمن الى النظر كيلا يضعف فيموت فان السهل الجلي جدا لاعمل للعقل فيه، والعقل اعز القوى الانسانية التي يجب تربيتها، والدين اعز شيء على الانسان فاذا لم يجد العقل مجالا للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه، واذا مات فيه لايكون حياً بغيره».[٥]

وذكر العلامة الطبرسي ذلك باختصار حيث قال: «فان قيل لم انزل الله تعالى القرآن المتشابه وهلا جعله كله محكما فالجواب: انه لو جعل جميعه محكما لاتكل الناس كلهم على الخبر واستغنوا عن النظر...».[٦]

كما ان الفخر الرازي ذكر ما يقرب من هذا المعنى حيث قال في هذا الصدد: «باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، يضطر الناظر فيه الى تحصيل علوم كثيرة من اللغة والنحو واصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال » ثم يقول: «باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه الى الاستعانة بالادلة العقلية فيتخلص من ظلمة التقليد، وفي ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، ولو كان كله محكماً لما احتاج الى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملاً...» واخذ هذا المعنى الشيخ صبحي الصالح فقال: «لعل اشتمال القرآن على المتشابه وعدم اقتصاره على المحكم وحده، ان يكون حافزاً للمؤمنين على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تعودهم على فهم الآيات المتشابهات فيتخلصون من ظلمة التقليد، ويقرأون القرآن متدبرين خاشعين».[٧]

ولربما عبر عن هذا المعنى بلسان آخر وهو حصول الثواب باعمال النظر في القرآن الكريم وهو ما قاله المرحوم الطبرسي من انه: «لو لا وجود المتشابه لكان لا يحصل لهم ثواب النظر واتعاب الخواطر في استنباط المعاني».[٨]

وقال الفخر الرازي ايضا: «متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول الى الحق اصعب واشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب».

كما انه قد يعبر عنه بلسان آخر هو «لسان ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات العلمية».

وهذا ما جاء في المجمع حيث يقول: «ولكان لايتبين فضل العلماء على غيرهم».[٩] ونقل السيوطي عن البعض قوله: «ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، اذ لو كان كله محكماً لا يحتاج الى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره».

ويرى المرحوم الشهيد السيد باقر الحكيم ان نوعا من المتشابه وهو الذي لايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم انما ورد في القرآن الكريم بهذا الاسلوب بعض المسائل الكونية وغيرها لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة.

ومما لاريب فيه ان القرآن الكريم اوجد بنزوله مرحلة فكرية جديدة ونقل المجتمع من حضيض التفكير الجامد الضيق الى سمو فكري متفتح ونضج بلغ في مراحله التالية الى مستوى فلسفي لاتصله اية فلسفة ومستوى علمي جوال قاد العالم خلال قرون ومستويات فكرية تشريعية واخلاقية ما رأى الكون لها مثيلا.

يقول الدكتور محمد يوسف موسى: «ان القرآن كان من اهم العوامل التي دفعت المسلمين الى التفلسف ثم بيان ما اشتمل عليه من فلسفة، سواء ما يتعلق منها بالانسان وما يتعلق وصلته جل وعلا بالانسان، ومن الحق ان القرآن قبل كل شيء هو كتاب العقيدة الحقة، والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان والاخلاق التي لايقوم مجتمع سليم الا بها».[١٠]

ويقول الامام الخوئي: «لانه الكتاب الذي يضمن اصلاح البشر ويتكفل بسعادتهم واسعادهم، والقرآن مرجع اللغوي ودليل النحوي، وحجة الفقيه، ومثل الاديب، وضالة الحكيم، ومرشد الواعظ، وهدف الخلقي، وعنه تؤخذ علوم الاجتماع والسياسة المدنية وعليه تؤسس علوم الدين، ومن ارشاداته تكتشف اسرار الكون، ونواميس التكوين...»[١١]

ويقول الاستاذ المطهري: «ان الفلاسفة المسلمين استطاعوا بالهام من القرآن الكريم وكلمات الرسول الاكرم(ص) والائمة الاطهار(ع) ان يوجدوا مدرسة فلسفية تعتمد الاستدلال المنطقي المتقن.»[١٢]

ولعل من اهم عوامل الدفع نحو الفلسفة بالخصوص والتوسع الفكري على العموم وجود هذه الايات المتشابهة على اختلاف اصعدتها الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتي تدفع المسلم المتأمل في القرآن بحكم تطلعه الى فهم معناها، وتدفعه لذلك التوسع.

٣. تقريب الامور العميقة الى الافهام:

ويتوضح ملخص ما ذكره العلامة الطباطبائي في هذه الحكمة بمتابعة الخطوات التالية:

اولاً: ان الارتباط بالله تعالى والمعاد وما الى ذلك من تفصيلات العالم الغيبي امر ضروري للانسان بل هو روح التصور الاسلامي عن الواقع... وهذا يستدعي ان يعرف المسلمون القدر الضروري عن نوعية هذه العلاقة.

ثانيا: ان الانسان حبيس ضعفه وتصوراته الخاصة الحسية والعقلية التي توفرت له خلال حياته ... ومختلف مراتب الناس على ضوء كمية التصورات التي لديهم.

ثالثا: وعلى ضوء مما سبق ولأجل الكشف عن القدر الضروري لنوعية العلاقة الآنفة لجميع الانسانية فقد اتبع القرآن اسلوب التمثيل والتشبيه ليقرب تلك المعاني العالية الى الاذهان فيقرب الامر المعنوي المجرد الى الاذهان المختلفة عبر ذلك التمثيل بحقائق حسية.

رابعاً: الا ان من الواضح ان الممثل قد لا يتوافق مع الممثل به في مختلف الجوانب والخصائص خصوصا وهما من عالمين مختلفي القوانين والاحكام (عالم المجردات وعالم الماديات).

وعدم التوافق هذا قد يجر الى محذورين يخالفان الغرض الاساسي لهذا التمثيل وهو الهداية القرآنية:

الف ـ نقل الخصائص الحسية للممثل به الى الممثل وهذا يعني تغير الحقيقة وانقلاب الغرض.

ب ـ وقد يلتفت الانسان الى الفرق بين الممثل والممثل به فيبدأ بعملية تجريد الممثل به من الخصوصيات مما قد يؤثر في تشويه الصورة المطلوب اعطاؤها بزيادة او نقصان.

خامسا: وتخلصا من هذه المحاذير يلجأ القرآن الى توزيع المعاني التي يريد اعطاءها الى امثال مختلفة واعطائها صيغ مختلفة حتى يفسر بعضها بعضا وينتهي الامر الى تصفية عامة تنتج ما يلي:

الف ـ ادراك القارئ للقرآن ان هذه الصور هي مجرد امثال لا تعبر عن كل الحقيقة ولا تكسب الواقع العيني كل خصائصها.

ب ـ بجمع هذه الامثال الى بعضها ينفي بكل واحد منها الخصوصيات الحسية الموجودة في المثال الاخر.

وبذلك تتحقق الهداية القرآنية العامة ويتخلص من نقائص هذا الاسلوب الذي لامفر منه.[١٣]

وقد عبر ابن اللبان في كتابه «رد الآيات المتشابهات الى الآيات المحكمات» عن رأي اخص من هذا فقال بتلخيص من صاحب المناهل:

«ليس في الوجود فاعل إلا الله، وافعال العباد منسوبة الوجود اليه تعالى بلا شريك و لا معين فهي في الحقيقة فعله وله بها عليهم الحجة «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون».

ومن المعلوم ان افعال العباد لابد فيها من توسط الجوارح مع انها منسوبة اليه تعالى وبذلك يعلم ان لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين: مظهرا عباديا منسوبا اليه، وقد اجرى عليه اسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لافهامهم والتأنيس لقلوبهم ولقد نبه تعالى على القسمين، وانه منزه عن الجوارح في الحالين. فنبه على الاول بقوله: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» فهذا يفيد ان كل ما يظهر على ايدي العباد فهو منسوب اليه تعالى، ونبه على الثاني بقوله فيما اخبر عنه نبيه(ص) في صحيح مسلم «ولايزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى احبه، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» وقد حقق الله ذلك لنبيه بقوله: «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله» وبقوله: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوبا اليه تعالى فلا يفهم من نسبتها اليه تشبيه ولا تجسيم. ولكن الغرض من ذلك التقريب للافهام والتأنيس للقلوب...»[١٤]

٤. اعطاء الكل والتركيز على البعض:

ذكر الفخر الرازي رأياً يقرب من الرأي السابق فقال: ان القرآن يشتمل على دعوة

الخواص والعوام، وطبايع العوام تنبو في اكثر الامور عن ادراك الحقائق فمن سمع من العوام في اول الامر اثبات موجود ليس بجسم ولامتحيز ولامشارإليه ظن ان هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل فكان الاصلح ان يخاطبوا بالفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الاول: وهو الذي يخاطبون به في اول الامر من باب المتشابه.

والقسم الثاني: «وهوالذي يكشف عن الحق الصريح هو المحكم».

وعبر عنه الشيخ عبده بتعبير آخر فقال:

«ان الانبياء بُعثوا الى جميع الاصناف من عامة الناس وخاصتهم وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وهناك من المعاني ما لايمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، وانما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية والتعريض ويؤمر العامة بتفويض الامر فيه الى الله تعالى والوقوف عند حد المحكم فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده».[١٥]

ويعلق السيد باقر الحكيم على هذا النص بعد رد اشكال العلامة عليه فيقول: (اذا عرفنا دور المحكم والمتشابه امكننا ان نتصور بسهولة ان بعض المعاني لا يدركها الا الراسخون في العلم دون العامة خصوصا المعاني التي تربط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية كجريان الشمس (والشمس تجري لمستقر لها) او تلقيح الرياح لواقح أو جعل الماء مصدرا للحياة (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فان كل هذه المعلومات حين تتكشف لدى العلماء تكون من المعلومات التي اشار اليها القرآن الكريم ويعرفها الخاصة دون غيرهم).[١٦]

ومما يؤكده ان الراغب الاصفهاني في مفرداته ذكر أن من المتشابه ما «يجوز ان يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم وهو الضرب المشار إليه بقوله عليه السلام في علي رضي الله عنه : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».[١٧]

فتكون بعض الايات متوجهة الى القادة الفكريين بالخصوص على اساس انهم

سيعرفون الواقع المراد بالتفصيل للامة ككل.

ولعله الى مثل هذا الرأي يشير الزرقاني فيقول في مجال تعداد الحكم من وجود المتشابه: (اولاها) رحمة الله بهذا الانسان الذي لا يطيق معرفة كل شيء، واذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكا وخرّ موسى صعقا فكيف لو تجلى سبحانه بذاته وحقائق صفاته للانسان؟ ومن هذا القبيل اخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو ادركوا بالتحديد شدة قربها منهم ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم، ليعيشوا في بحبوحة من اعمارهم».[١٨]

وأُوضِّح ان هذا النص غير دقيق في تعبيره والا فلا معنى لتصور امكان تجلي الله تعالى بذاته وحقائق صفاته وانما يقصد ان النفس والتصور الانساني يكل غالبا عن تصور اقصى ما يمكن تصوره في الساحة الالهية.

كما ان من الواضح انه يجمع الى صف هذه الحكمة (حكمة اعطاء الناس على قدر امكاناتهم) حكمة بث الامن والامل باخفاء بعض الامور عنهم جامعاً الحكمتين تحت عنوان رحمة الله بالانسانية.

٥. تحقيق بعض جوانب الاعجاز:

فان في هذا التشابه بعض ضروب الاعجاز ففيه الاعجاز البلاغي حيث يقول الزرقاني: لان كل ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي الى التشابه، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الاعلى في البيان، ولو اخذنا في شرح هذا لضاق بنا المقام، وخرجنا جملة من هذا الميدان، الى ميدان علوم البلاغة وما حوت من خواطر واسرار، للايجاز والاطناب والمساواة...»[١٩]

وفيه الاعجاز العلمي حيث تنكشف على الزمن حقيقة ما رمى اليه القرآن من الآيات التي تشكل نوعاً متشابها لدى من لم يكونوا مطلعين على حقيقتها في حين

يكشف العلم عن الواقع بعد قرون مما يؤكد النسب السماوي للقرآن.

وكذا يمكن ادخال بعض الآيات المخبرة بالغيب ـ وان كان ذلك يحوي نوعا من الاشكال.

٦. القرآن دستور يحوي بعض الاجمال ولا يمكن التفصيل فيه :

ويقصد بهذا ان يقال: ان القرآن لو اراد ان يبين كل جوانب الحقيقة ويعين المصاديق الصحيحة وينفي الباطل منها لكان ذلك يستدعي مجلدات ضخمة ولم يكن من الممكن انزاله على ذلك النمط.

ويتوضح هذا عند ملاحظة قصر فترة حياة الرسول (ص) وانشغاله بالمشاكل الهائلة، وعدم قدرة المسلمين على استيعاب تلك المجلدات الضخمة، وحفظها من الضياع وامثاله.

ولهذا يشير الزرقاني ـ بنوع من الاجمال ـ فيقول:

«ثانيتها: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه، لان كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دال على معان كثيرة زائدة على ما يستفاد من اصل الكلام ولو عبر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بالفاظ، لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي، ولوجئنا بمثله مددا».[٢٠]

٧. التعبير العام الذي لاينفّر المذاهب عنه :

ويقول الفخر الرازي في تقريب هذا الوجه انه (لو كان ـ أي القرآن ـ كله محكماً بالكلية، لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان بصريحه مبطلا لجميع المذاهب المخالفة وذلك منفر لارباب المذاهب الاخرى عن النظر فيه، اما وجود المتشابه والمحكم فيطمع فيه كل مذهب ان يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه، فيضطر الى النظر فيه، وقد يتخلص المبطل من باطله اذا امعن فيه النظر فيصل الى الحق).

ملاحظات حول الوجوه السابقة :

الملاحظة الاولى: هي انه يلزمنا ان نلحظ هذه الوجوه كلها أو أكثرها ـ لو تمت في نفسها ـ ونعتبرها ردا على سؤال لم ورد المتشابه في القرآن الكريم؟.

وذلك لان البعض منها انما يصح في بعض الآيات المتشابهة دون غيرها ـ وقد التفت الى هذه النقطة بعض الباحثين.

الملاحظة الثانية: ان بعض الوجوه السابقة لايمكن المساعدة عليها، وخصوصا الوجه الاخير، فان القرآن هو الفارق بين الحق والباطل وهوالمقياس الحق ولايمكن لهذا المقياس ان يكون عاما مضللا يمكّن كلا من تصحيح مذهبه والتمسك به ضد الاخرين.

وكذا بالنسبة للوجه الخامس في قسمه البلاغي، فان البلاغة تركز اول ما تركز على ايصال المعنى بالدقة وبإطار لفظي جميل الى السامع، اما الابهام والتشابه فقد يتنافى والغرض البلاغي، اللهم الا اذا كان هناك غرض آخر يستدعيه...فلا يمكن ان يكون التشابه معللا بانه ضرب من ضروب البلاغة او ناتج لها.

الملاحظة الثالثة: ان اكثر ما ورد من وجوه قد تعتبر تبريرات لما وقع، ولذا فان روح المسألة تتركز في الحكم الثلاث (الثالثة، والرابعة، والسادسة) والتي يمكن جمعها تحت عنوان: «عدم امكان خلو القرآن من التشابه» وذلك بعد ملاحظة دور القرآن كموضح لأعمق الحقائق، وكدستور عام، وكهاد يمنح كلا بمقدار ما يستطيع تقبله.

هذا هو روح الجواب وما ذكر من وجوه اخرى فهي ترتبط به وتدور حوله.

الملاحظة الرابعة: ان اهم اشكال يمكن ان يورد على وجود المتشابه يلخص في تعبيرين:

الاول: ان القرآن الكريم، هدىً، ونور،وذكر، وفرقان وحكيم، وما شابه ذلك في حين ان التشابه لا ينسجم مع هذه الصفات لانه يوقع الانسان في حيرة من معرفة الحقيقة وربما كان بعض ما فيه لايمكن معرفته مطلقا.

الثاني: ما ذكره الفخر الرازي من ان وجود المتشابه في القرآن كان سببا لاختلاف

المذاهب والآراء وتمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع مذهبهم. ونضيف على هذا فنقول:

ان بعض الايات التي يشير اليها المستشكلون قد تجعل ـ بل جعلت ـ ذريعة للتمسك بعقائد تتناقض تمام التناقض مع العقيدة الالهية بل تقضي عليها من الاساس، وهذا يعني نقض الغرض الذي جاءت من اجله الرسالة... وهذا من مثل عقيدة التجسيم الذي يساوق تقديم صورة هزيلة عن الله تعالى مما ينتهي الى انكاره في الواقع، وكذا من مثل عقيدة الجبر التي تنفي المسؤولية الاخلاقية وتوجد مشاكل كبرى، وعقيدة نفي العصمة عن الانبياء التي تنتهي الى التشكيك في اقوالهم وغير ذلك.

وعليه فان هذا الاشكال ـ بهذين التعبيرين ـ لايمكن ان يدفع بهذه الوجوه التي مهما تصاعدت قيمتها فانها قد لا تعادل هذا الخسران الاساسي الكبير الذي يجر الامة الى الضياع والتمزق ويقضي على العقيدة ويفقد القرآن ـ والعياذ بالله ـ صفته الهادية، أو أن يقال بتعادل الربح والخسران.

وهذا يدعونا لان نتطلب وجود ما يعصم الامة من التفرق والتمزق والعقيدة من الانقلاب على اهدافها فما هو هذا المرجع الذي يجب الرجوع اليه؟

ما يبدو من الآية والروايات الشريفة امران هما:

أ ـ **الايات المحكمات**: ويفهم الارجاع اليها من جعلها أماً للكتاب، والامية لاريب تعني المرجعية فهي التي تنفي ادخال صور باطلة في تصور الانسان عن الآية او ادخال مصاديق باطلة للمفهوم منها، ويحتاج هذا الى رسوخ علمي في نفسه... ويبقى مجال كبير للتشابه خصوصا لاولئك الذين في قلوبهم مرض ليغروا به الآخرين.

ب ـ **الراسخون في العلم**: وهم المرجع الثاني والاكثر عمومية لحل التشابه، فهم الذين يفسرون الدستور الالهي ويعطون تفصيلاً له ولهم يرجع في التفريق بين الحق والباطل، فهم محور وحدة الامة وملجأ العلم ومنتهى السبل، ولكن من هم هؤلاء الراسخون في العلم؟ ان الروايات المتواترة معنى عن النبي (ص) لتركز بصورة عامة على مرجعية

النبي(ص) واهل البيت للأمة في كل ما يبدو لها من غموض في كل شيء ومن جوانب الغموض هذا التشابه الذي يلاحظ في بعض الآيات القرآنية، واهم هذه الاحاديث حديث الثقلين الذي سلمت به الفرق الاسلامية، والذي اكد على اقتران العترة بالكتاب، وعلى لزوم التمسك بهما معا، وان الرجوع اليهما معا عاصم من الضلال، وانهما لن يفترقا الى يوم القيامة، وهكذا الاحاديث النبوية المختلفة في علم الامام (ع) مثل حديث انا مدينة العلم وعلي بابها. وقد اكد اهل البيت على مرجعيتهم في كل الامور، فهذا نهج البلاغة يصفهم بأنهم: موضع سر النبي، ولجأ امره، وانهم اساس الدين وعماد اليقين اليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، وهم ازمّة الحق، واعلام الدين وألسنة الصدق، وهم كمثل نجوم السماء اذا خوى نجم طلع نجم، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم وعندهم ابواب الحكم وضياء الامر، وان نطقوا صدقوا، وان صمتوا لم يسبقوا، وهم عيش العلم وموت الجهل، وان بهم عاد الحق الى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه.[٢١]

ويقول الامام في نص رائع يعين المرجع في الشبهة: «فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الاجرب، والبارئ من ذي السقم، واعلموا انكم لن تعرفوا الحق حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه فالتمسوا ذلك من عند اهله فانهم عيش العلم وموت الجهل.

هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصحتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق».[٢٢]

وجاءت روايات اهل البيت (ع) لتؤكد هذا المعنى فهناك ابواب عديدة في اهم المصادر الشيعية ومنها الكافي في ان الارض لا تخلو من حجة وهم الحجة، وانهم شهداء الله عزوجل على خلقه وانهم الهداة، وانهم ولاة امر الله وخزنة علمه، ونور الله ، وانهم ورّاث الكتاب، وانهم يعلمون علمه كله الى غير ذلك من الاوصاف العظمى التي ذكروها لنا للامام (ع) وهم الصادقون المصدقون.

ويزداد التركيز على مرجعيتهم (ع) لذلك عندما تأتي الاحاديث المصرحة بانهم هم الراسخون في العلم دون غيرهم؛ فقد جاء في كلام للامام امير المؤمنين(ع) متحديا اولئك الذين ادعوا العلم والمرجعية فقال:

«اين الذين زعموا انهم الراسخون في العلم دوننا كذبا وبغيا علينا، أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى، ويستجلى العمى، ان الائمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم»[٢٣].

وعن ابي بصير عن ابي عبدالله (ع) قال: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله.[٢٤]

وعن بريد بن معاوية عن احدهما في قول الله عزوجل «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم.»[٢٥] فرسول الله(ص) افضل الراسخين في العلم، قد علمه الله عزوجل جميع ما انزل عليه من التنزيل والتأويل وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلّمه تأويله، واوصياؤه من بعده يعلمونه كله، والذين لايعلمون تأويله اذا قال العالم فيهم بعلم فاجابهم الله بقوله: «يقولون آمنا به كل من عند ربنا» والقرآن خاص وعام ومحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه.[٢٦]

وعن عبدالرحمن بن كثير عن ابي عبدالله(ع) قال: الراسخون في العلم امير المؤمنين والائمة من بعده (ع).

وهكذا نعرف: ان الوجوه الصحيحة من الحكمة اذا لوحظت في جو من المرجعية الفكرية للرسول (ص) واهل البيت(ع) شكلت حكماً حياً ولم تعد أية شبهة في اداء المتشابه الى التفرق المذهبي العقائدي..

هذا ولا معنى لان ينقض علينا بانه ان كان الامر كما تقولون فلم هذا التفرق والتمزق؟. وذلك لانه لما كانت الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة قد أدت دورها الكامل الواضح في الارجاع نحو اهل البيت (ع) لم يعد هناك سبب من طرف الشارع المقدس يدعو الى التفرق والتمزق بل عبئت كل الطاقات واريد لكل هذه الحكم

وغيرها من اهداف القرآن ان تؤدي دورها المطلوب في ظل المرجعية الفكرية والسياسية لهم(ع) ... فاذا وجدنا التفرق بعد ذلك فهو من ذنب المتفرقين...

فان عادوا واعترضوا علينا بان وجود المتشابه قد مكن لهم بعض الشيء تأييد عقائدهم الباطلة عدنا وقلنا ان هذا يشبه التمسك بقول لاحد المتكلمين دون ملاحظة القول المفسر الذي تبعه لالشيء الا عن زيغ ومرض في القلب... فهذا امر لايمكن التخلص منه وهنا يكون الامتحان والبلاء ليمحص الذين يرجعون للقرآن بموضوعية ممن يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله دون الرجوع الى المرجع المفروض.

واخيرا فاننا يمكن ان نضيف الى تلك الحكم المذكورة نفس هذا الاطار العام الذي تعمل في ظله تلك الحكم؛ ونعني بذلك ان وجود المتشابه في القرآن يؤدي بالتبع للاتجاه نحو القادة للاستزادة والاستيضاح عن تفاصيل ذلك الدستور الالهي الخالد.

فتكون النتيجة ملخصة في ما يلي:

١ ـ ان اكثر تلك الحكم المذكورة اذا جمعت الى بعضها شكلت امرا يعتمد عليه وحكمة جيدة لمجيء المتشابه الا ان الاشكال الذي يورد على ذلك لايمكن رده بتلك الحكمة إلا في اطار جعل المرجع الذي يرفع الخلاف.

٢ ـ ان ذلك المرجع هو الآيات المحكمات وكذلك (الراسخون) في العلم.

٣ ـ إن الراسخين في العلم هم النبي(ص) والقادة من أهل البيت(ع).

الهوامش:

١ - تفسير المنار ج ٣ ص ١٧٠.

٢ - مناهل العرفان، ج ٢ ص ١٧٨.

٣ - نفس المصدر ص ١٩٣.

٤ - نفس المصدر ص ١٧٩.

٥ - رشيد رضا تفسير المنار ج ٣ ص ١٧٠.

٦ - مجمع البيان ج ٢ ص ٤١٠ .

٧ - مباحث في علوم القرآن ص ٢٨٦.

٨ - مجمع البيان ج٣ ص ٤١٠.

٩ - مجمع البيان ج ٣ ص ٤١٠.

١٠ - القرآن والفلسفة ص ٥ .

١١ - البيان في تفسير القرآن ص ٣ .

١٢ - علل الانحراف نحو المادية ص ١٦٧ طبع مشهد انتشارات طوس .

١٣ - الميزان ج ٣ من ص ٥٨ الى ص ٦٥ .

١٤ - مناهل العرفان ج٢ ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

١٥ - تفسير المنار ج٣ ص ١٧٠ ـ ١٧١.

١٦ - رسالة الاسلام العددان ٥، ٦ السنة الثانية صفحة ٢٨.

١٧ - غريب القرآن ص ٢٥٥.

١٨ - مناهل العرفان ج ٣ ص ١٧٨.

١٩ - مناهل العرفان ج ٢ ص ١٨٠.

٢٠ - مناهل العرفان ج ٢ ص ١٨٠.

٢١ - راجع ص ٧٣٣ نهج البلاغة ـ صبحي الصالح.

٢٢ - نهج البلاغة ص ٢٠٦.

٢٣ - نهج البلاغة ص ٢٠١ .

٢٤ - الكافي الجزء الاول ص ٢١٣.

٢٥ - نفس المصدر .

٢٦ - نفس المصدر .